ويمكن القول، بدون تجاوز كبير، ان الروائي، أو الكاتب، العربي هنا جاوز المعطيات الفلسفية، أو الادبية، عند سارتر وفوكنر وغوركي الى الواقع العربي بكل مأساويته في ذلك الوقت.

كان الواقع العربي الممزّق، فضلاً عن نكبة فلسطين وتخلخل كثير من القيم منذ نهاية الخمسينات وطيلة الستينات، دافعاً لتكوين «الخطاب» الكنفاني، خاصة وأن الادب العربي كان كله يعكس هذا الواقع في ذلك الوقت؛ حتى ان ليفين قال في وصفه لحال الادب العربي، حينذاك، ان هذا الادب عكس «هذا الشعور بالعجز، والاحباط، والقلق، والتشاؤم، وفقدان الاتجاه، وانعدام الثقة بالنفس، والسخط على العالم المجنون الذي يضطر الانسان العاجز، والمغترب، الى العيش فيه. وغدا البطل الادبي شخصاً متعلقاً بالتقاليد، عديم الثقة بالآخرين، متمرّداً وضحية للوسط المحيط، أو متمرّداً فردياً يسير نحو الهاوية المأساوية»[٦].

لقد كان غسان، باختصار، أسير مأساته الفلسطينية، والعربية. وهذا ما يقترب بنا، أكثر، من النتاج الادبي له حينذاك، لنرى ذلك المناخ الذي كتب فيه رواية «الشيء الآخر».

الاطار المرجعي؛ الكتابة

في عقد الستينات، حين كتب غسان روايته «الشيء الآخر»، كتب، أيضاً، عديداً من الاعمال الاخرى التي تتوحّد في خطابها جميعاً، نتيجة لوجود «الوعي» الذي صدرت عنه. وهذا الوعي يرى ان قضية فلسطين تسبق، في وجودها، قضية الوجود ذاته؛ وهذا يعني، عند الروائي الفلسطيني، ان العجز عن فهم قضية فلسطين يوازي العجز عن فهم قضية الوجود بعد ذلك، الأمر الذي نجده في أدبيات كنفاني في تلك الفترة.

لقد أصدر، بين العامين ١٩٦١ و١٩٦٢، مجموعتين قصصيتين، هما «موت السرير رقم ١٢» و«أرض البرتقال الحزين». ومراجعة قصصه، في ذلك الوقت، ترينا انها، جميعاً، تغادر المعنى المجرّد عند سارتر، الى المعنى الوجودي، المأساوي، في نكبة فلسطين. ومع اننا لا نخطىء ملامح وجودية صارخة في تلك القصص، فان الواقع العربي كان الباعث الاول الى استنبات هذه الملامح؛ فأغلب تلك القصص لا يخرج، قط، عن ثلاثة موضوعات أثيرة لديه، هي الخروج والمنفى والثورة.

ولاحظ فؤاد دوارة، في مجلة «فصول» (أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٢، ص ٣٣١)، إنه، في هذه القصص، ومن بين احدى وستين قصة، نعثر على خمسين قصة عن فلسطين. كما يمثّل موضوع النفي المكانة الثانية؛ فمن بين خمسين قصة نعثر على ثلاثين منها تتحدّث عن قضية المنفى؛ كما تمتزج الموضوعات في القصة الواحدة بين الخروج والمنفى والثورة، فضلاً عن رصد بعض المواقف العربية التي تتمثّل في تقاعس بعض الحكومات العربية، آنذاك، في وقوفه الى جانب الفلسطينيين، فضلاً عن مطاردتهم، واضطهادهم.

وفي العام التالي مباشرة، بدأت تتوالى رواياته، وفي مقدمها كانت روايته الملحوظة «رجال في الشمس»، التي تحدّد الموت فيها كمعادل موضوعي لفلسطين. ان تلك الرواية أكدت ان الموت الفردي لا بدّ ان يأتي في غيبة العمل الجماعي. وحين تتجلّى حالات التصرّف الفردي يكون الموت هو المصير؛ فحين مات أبطال هذه الرواية مختنقين في خزّان حافلة على الطريق بين الكويت والعراق، صاح صوت حامل الرأي: «لماذا لم تدقوا جدران الخزّان؟». غير ان التحوّل بدا مؤكداً في الرواية التالية «ما تبقى لكم» (١٩٦٦)، فاستبدل بالموت المجاني الفعل الايجابي.